# المشانق إذ تُنصب

**حسان عباس**

**معهد الأصفري للمجتمع المدني والمواطنة**

مساء الجمعة 7 آب، وخلال لقاء عابر معه على قناة تلفزيونية خاصة، قال أحد ناشطي الثورة اللبنانية: أريد أن أقول للسياسيين إن مفاجأة تنتظرهم غدا في ساحة الشهداء، غداً سيجدون مشانقهم معلّقة، فليستعدوا". وفعلا، وقبل أن تبدأ حشود مظاهرة يوم السبت بالتجمع في الساحة، كانت هناك عدة مشانق منصوبة لم يتأخر المتظاهرون الغاضبون عن تحميلها صورا لبعض رموز السلطة المكروهة.

تعيد هذه الحادثة إلى الذاكرة شعاراً من الثورة الفرنسية آن كانت مصابيح مدينة باريس تستخدم كأعمدة تحمل مشانق من اعتبروا أعداء للثورة بنظر الثائرين. يقول الشعار الذي أصبح أغنية شعبية في وقت لاحق:

ستسير الأمور على ما نريد

الأرستقراطيون على المصابيح

ستسير الأمور على ما نريد

فسنشنق الأرستقراطيين.

رافقت صورة المشانق على المصابيح الثورةَ الفرنسية من بداياتها وكان أول من تم تعليقه على المصباح المراقب العام للمالية الذي انقطع حبل المشنقة به فقصّوا رأسه وحملوه على رأس رمح. وبعد ثلاث سنوات دخل الثوار إلى قصر التويليري حيث تقيم ماري أنطوانيت حاملين مشنقة تتدلي منها دمية قذرة وإعلان كتب عليه "ماري أنطوانيت إلى المصباح". وصارت صورة المشانق رمزا للعنف المنفلت الذي نقرأ من بين حكاياته حكاية الخباز "ديني فرانسوا" الذي أعدم شنقا لأنه ادعى أن لا خبز للبيع في متجره.

لا مجال للمقارنة بين مشانق ساحة الشهداء الرمزية ومشانق المصابيح الفرنسية الواقعية. غير أن حجم الغضب الذي ولّده انفجار المرفأ، وارتفاع حدة التوتر منذ مساء السبت وما رافقه من عنف متبادل بين مجموعة من المتظاهرين من جهة وقوى الأمن ومكافحة الشغب والجيش من جهة ثانية يدفع المراقب المتابع لمسلسل الأحداث ليصيخ السمع ويبقى متنبها لما يمكن أن تؤول إليه تطورات الأحداث. وعليه لا يمكننا أن نستهين بعملية نصب المشانق، ولا أن نتجاهل ما قاله بعض المتظاهرين مساء السبت في لقاء على إحدى القنوات: إنهم يقتلوننا، لم يعد للثورة السلمية أي معنى، يجب أن تتسلح الثورة.

وكما أعادتنا صورة المشانق إلى الثورة الفرنسية أعادتنا هذه الصرخة الغاضبة إلى ثورة أقرب زمانا ومكانا منها، إلى ثورة الكرامة في سوريا. عندما بدأت المظاهرات ضد النظام الاستبدادي كانت مظاهرات سلمية، وكان المشاركون فيها يصرون على إظهار صفتها هذه فيحملون لافتات كتبت عليها كلمة "سلمّية"، ويهتفون بشعار "سلمية، سلمية". وكأنهم يعرفّون عن ثورتهم بأقوى خاصية يجدونها فيها. كانت الثورة السورية في

مرحلتها السلمية ثورة منتصرة في المعركة، لأن المعركة تجري على أرض الثوار: أرض العيش الكريم والأخلاق. وعلى أرض كهذه ليس لدى النظام الاستبدادي ما يكفي من قوة، فهو جاهل بالكرامة وبالأخلاق. في تلك المرحلة ظهرت عشرات التقارير التي تبيّن إحجام الكثير من عناصر قوى القمع التابعة للنظام عن ممارسة العنف على المتظاهرين السلميين رغم كل عمليات غسل الأدمغة التي خضعوا لها أثناء تنشئتهم كحماة لنظام الاستبداد. فكان لا بد للنظام ليكسر السلاح الأكثر مضاء وفعالية في الثورة من العمل على نقل المعركة من أرض الثورة السلمية إلى أرضه، أرض النظام العسكرية، حيث يملك كل القوة اللازمة لينتصر.

استخدم النظام لإتمام عملية نقل أرض المعركة وسيلتين سرعان ما أثبتتا نجاعتهما:

- اللجوء إلى العنف المنفلت من عقاله، حيث سقط أول شهيد برصاص قوى النظام في تظاهرة مدينة درعا يوم 18 آذار بعد أيام قليلة من انطلاقة للثورة. ومع تزايد الزخم الثوري تزايدت حدة عنف النظام دافعة الثوار المسالمين إلى خيار التسلح بذريعة حماية التظاهرات.

- تيسير إمكانية وقوع الأسلحة في أيدي المواطنين. فقد تواترت الأخبار آنذاك عن مرور شحنات من الأسلحة عبر الحدود تحت نظر الجمارك والقوى المسؤولة عن ضبط الحدود. كما شاعت حكايات غير مؤكدة عن إلقاء قوى المخابرات لكميات من الأسلحة على تخوم البلدات الثائرة لتقع في يد المتظاهرين.

لم تمض أشهر قليلة على الثورة السلمية حتى بدأت تتحول إلى ثورة مسلحة تمارس العنف المضاد بقوة متزايدة تتناسب طرداً مع تعاظم عنف قوى النظام.

تختلف مظاهر عنف النظام السوري عن عنف النظام اللبناني، لكن ليس الاختلاف مدعاة للتقليل من هذا الأخير. إن التوقيفات التي شهدناها في الأشهر الأخيرة، والتنكيل بالإعلاميين، والتهجم على المعتصمين السلميين في الساحات وغيرها من المظاهر القمعية لا تقل خطورة عن أي شكل من اشكال العنف الممارس في أي نظام استبداد. وعلى العموم، لا تفاضل في درجة العنف الممارس ضد الناس. العنف هو العنف وهو أيا كانت أشكاله ودرجاته يستدرج عنفا مقابلا يستدرج بدوره عنفا أكبر. حركة العنف لولبية تصاعدية مهما كانت بدايته ناعمة، وقد تنتهي إلى مراتب تخرج عن قدرة المتجابهين على التحكم بها.

تتناسب سرعة حركة العنف مع قَدْر الغضب الكامن في نفوس الناس. وهو قدر عالٍ جدا في الحال اللبنانية الراهنة، عالٍ ومبرر حتى قبل انفجار يوم 4 آب، فما بالكم به بعد ذاك الانفجار المريع ورخاوة ردود أفعال السلطات، إن لم نقل استهتارها، في الاستجابة للظروف الطارئة وفي تحمل مسؤوليتها تجاه ما حدث.

لا يمكن لمراقب الأحداث إلا أن يتفهم أفعال المتظاهرين اللبنانيين وتصريحاتهم الغاضبة تجاه سلطتهم، ولا يمكن لأحد أن يستخف بغضبهم أو أن يبخس حقهم في التعبير عن ذاك الغضب، لكن الخوف كل الخوف أن تنفلت حركة العنف اللولبية فتودي إلى ما لا يتمناه أحد لهذا البلد الجريح. الخوف كل الخوف أن تكون المشانق التي نصبت بشكل رمزي فاتحة لعنف لن يكون رمزيا أبداً.